تعالى ، لا يُنكرها أحد حتى الكافرون ، فلئن سألتهم هذا السؤال ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٦٣) ﴾ [العنكبوت] لذلك يأمرنا الحق سبحانه بأن نقول بعد هذا الإقرار ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٦٣) ﴾ [العنكبوت] الذى أنطقهم بالحق ، وأقام عليهم الحجة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ [العنكبوت] لأنهم أقرُّوا بآيات الله فى خَلْق الكون ، ومع ذلك كفروا به .

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾

الحياة : نعرفها بأنها ما يكون فى الإنسان الأعلى فى الوجود من حسٍّ وحركة ، فإذا انتهى حسُّه وحركته لم تَعُدْ له حياة ، وهذه الحياة موصوفة هنا بأوصافٍ ثلاثة : دنيا ولهو ولعب ، كلمة دنيا تدل على أن مقابلها عُلْيا فساعة تسمع هذا الوصف « الحياة الدنيا » فاعلم أن هذا الوصف ما جاء إلا ليميزها عن حياة أخرى ، تشترك معها فى أنها حياة لله إلا أنها حياة عليا ، هذه الحياة العُلْيا هى التى قال عنها ربنا - تبارك وتعالى - « الدار الآخرة » .

وإنْ كنا قد عرَّفنا الحياة الدنيا بأنها الحسُّ والحركة فى الإنسان ، فالواقع عند التقنين أن لكل شىء فى الوجود حياةً تُناسب مهمته ، بدليل قوله تعالى حين يُنهى هذه الحياة : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فما يُقال له شىء لا بُدَّ أنْ يطرأ عليه الهلاك ، والهلاك تقابله الحياة ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

فالحياة ضد الهلاك ، إلا أنك تعرف الحياة عندك بالحس والحركة ،

وكذلك الحياة فى كل شىء بحسبه ، حتى فى الجماد حياة نلحظها فى أن الجبل يتكون من أصناف كثيرة من الحجارة ، ترتقى مع الزمن من حجارة إلى أشياء أخرى أعلى من الحجارة وأثمن ، وما دامت يطرأ عليها هذا التغيير فلا بُدَّ أن فيها حياةً وتفاعلاً لا ندركه نحن .

إذن : فكل شىء له حياة ، لكن الآفة أننا نريد حياة كالتى فينا نحن ، وأذكر ونحن في مراحل التعليم قالوا لنا : هناك شىء اسمه المغناطيس ، وعملية اسمها المغنطة ، فحين تُمغنط قطعة من الحديد تُكسبها قدرة على جَذْب قطعة أخرى وفى اتجاه معين ، إذن : فى الحديد حياة وحركة وتفاعل ، لكن ليس عندك الآلة التى تدرك بها هذه الحركة ، وفيها ذرات داخلية لا تُدرَك بالعين المجردة تم تعديلها بالمغنطة إلى جهة معينة .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ** .. (٢١) ﴾ [فصلت] فللجوارح نفسها حياة ، ولها كلام ومنطق ، لكن لا ندركه نحن ؛ لأن حياتها ليست كحياتنا . إنك لو تتبعتَ مثلاً طبقاً أو كوباً من البلاستيك لوجدته تغيَّر لونه مع مرور الزمن ، وتغيُّر اللون فيه يدل على وجود حياة وحركة بين ذراته ، ولو لم تكُنْ فيه حياة لكان جامداً مثل الزجاج ، لا يطرأ عليه تغيُّر اللون .

والحق - تبارك وتعالى - يصف الدار الآخرة بأنها ﴿ **الْحَيَوَانُ** .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] وفرْق بين الحياة والحيوان ، الحياة هى هذه التى نحياها فى الدنيا يحياها الأفراد ، ويحياها النبات ، ثم تؤول إلى الموت والفناء ، أمَّا الحيوان فيعنى الحياة الأرقى فى الآخرة ؛ لأنها حياة باقية حياة حقيقية .

والحق - سبحانه وتعالى - أعطانا صورة للحياة الدنيا ، الحياة المادية فى قوله تعالى عن آدم ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩) ﴾ [الحجر] فمن الطين خلق آدم ، وسوَّاه ونفخ فيه من روحه تعالى ، فدبَّتْ فيه الحياة المادية .

لكن هناك حياة أخرى أسمى من هذه يقول الله عنها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] فكيف يخاطبهم بذلك وهم أحياء ؟ لا بُدَّ أن المراد حياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، المراد حياة الروح والقيم والمنهج الذى يأتى به رسول الله .

لذلك سمَّى المنهج روحاً ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. (٥٢) ﴾ [الشورى] وسمَّى الملَك الذى نزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

إذن : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى : الحياة الحقيقية التى لا تفوتها ولا تفوتك ، ولا يفارقك نعيمها ، ولا يُنغِّصه عليك شىء ، كما أن التنعُّم فى الدنيا على قَدْر إمكاناتك وأسبابك ، أمّا فى الآخرة فالنعيم على قَدْر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى .

ثم يأتى وَصْف الدنيا بأنها لَهْو ولَعِب ، وهما حركتان من حركات جوارح الإنسان ، لكنها حركة لا مَقْصدَ لها إلا الحركة فى ذاتها دون هدف منها ؛ لذلك نقول لمن يعمل عملاً لا فائدةَ منه « عبث » .

إذن : اللهو واللعب عبث ، لكن يختلفان من ناحية أخرى ، فاللعب حركة لا فائدة منها ، لكنه لا يصرفك عن واجب يعطى فائدة ، كالولد حين يلعب ، فاللعب لا يصرفه عن شىء إذن : فاللعب لمن لم يبلغ ، أمّا البالغ المكلف فاللعب فى حقِّه يسمى لَهْواً ، لأنه كُلِّف فترك ما كُلِّف به

إلى ما لم يكلّف به ، ولَهَا عن الواجب ، ومنه : لَهْو الحديث[1] .

فقوله تعالى ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ .. (٦٤)﴾ [العنكبوت] أى : إنْ جُرِّدت عن الحياة الأخرى حياة القيم التى تأتى باتباع المنهج .

وقوله : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾ [العنكبوت] يُحتمل أن تكون الجملة هنا امتناعية يعنى : امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعنى : يا ليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ؛ لأنهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كُلَّ هذا العطاء الممتدّ ، ولَسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر ، فكأن المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)﴾

ينقلنا السياق هنا من الكلام عن حقيقة كل من الدنيا والآخرة إلى الحديث عن الفُلْك ، فما العلاقة بينهما ؟

المتكلم هنا هو الله تعالى ، وواضع كل شىء فى موضعه ، ولا يغيب عنك أنه لا بُدَّ أنْ تتدبر كلام الله لتفهم مراده ، فالله لا يريدنا مُقبلين على ظاهر القرآن فحسب ، إنما أنْ نتعمق فى فهمه وتأمله ،

---

(١) يقول تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦)﴾ [لقمان] . أخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ .. (٦)﴾ [لقمان] قال : باطل الحديث . وهو الغناء ونحوه ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦)﴾ [لقمان] قال : قراءة القرآن وذكر الله . نزلت فى رجل من قريش اشترى جارية مغنية . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٥٠٤] . وفى خبر آخر عنه أنه النضر بن الحارث .

ونتظر فى معطياته الحقيقية : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء]

والعلاقة هنا أن الآية السابقة جاءتْ لتقرر أن الدنيا دار لهو ولعب لا فائدة منها إذا ما بَعُدت عن منهج الله ، ولم تحسب حساباً لحياة أخرى هى الحياة الحقيقية وهى الحيوان ، فكان على العاقل أنْ يحرص على الآخرة ، وأنْ يعمل لها باتباع منهج الله فى الدنيا .

إذن : فالدنيا ليست غاية ، بل هى وسيلة ، وأنت أيها الذى أعرضتَ عن منهج ربك جعلتَ الدنيا غايتك ، والدنيا إنْ كانت هى الغاية فما أتفهها من غاية ، إنما اجعلها وسيلة للآخرة ومزرعة لدار الحيوان . وكذلك الحال فى الفُلْك ، فهى وسيلة تُوصلك إلى هدف ، وإلى غاية ، وليست هى غاية فى حَدِّ ذاتها .

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت] والفلك : السفينة ، وتُطلق على المفرد وعلى الجمع ، فيقول تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [هود] وقوله ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس] واضح من السياق أنها ليستْ دعوة الحمد ، كأن يقولوا مثلاً ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزخرف] بل هى دعوة الاضطرار بعد أنْ تعرَّضوا لشدة وعطب لا تنجيهم منها أسبابهم ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

فهذه تعطينا أنهم ركبوا فى السفينة ، فلما تعرَّضوا للعطب ، وضاقتْ بهم أسبابهم دعوا الله مخلصين له الدين[1] .

(١) ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبى جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجى هنا إلا هو . فقال عكرمة : والله لئن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى فى البر أيضاً غيره ، اللهم لك عليٍّ عهد ، لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رءوفاً رحيماً ، فكان كذلك . [أورده ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٢١) .

وفى لقطة أخرى يقـول القرآن : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)﴾ [يونس]

فمعنى ﴿أُحِيطَ بِهِمْ .. (٢٢)﴾ [يونس] أى : لا يوجد لهم مـفر ولا مهـرب ولا مفزع يفـزعون إليه إلا أنْ يتـوجهوا إلى الله بدعـاء خالص ويقين إيمان فى أنهم لا ملجـأ لهم إلا الله ، وقد كانوا فى أول الرحلة فرحين بمركبهم مسـروررين به ، وساعتها لم يكُن الله فى بالهم ، إنما لما ضاقت بهم الحيل عادوا إلى الحق ، فالوقت لا يحتمل المراوغة .

لأن الإنسان عادةً لا يخدع نفسه ، فحتى الكافر حين تضيق به أسباب النجاة يلجأ بالفطرة إلى الله الحق ، وينسى آلهـته ومعبوداته من دون الله ؛ لأنه لا يسلم نفسه أبداً ، ولا يتمادى حينئذ فى كذبة الآلهة والأصنام .

لذلك : ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٦٥)﴾ [العنكبوت] دعوة خالصـة بيقين ثابت فى الإله الحق ، دعـوة لا تشوبها شائبـة شرك ، لا ظاهر ولا خفى ، فلا ينفع فى هذا الوقت إلا الله المعبود بحقٍّ .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثَـلٍ من حياتنا الواقعية ، قلنا : إن حلاق الصحـة كان يقوم بدور الطبـيبِ فى القرية ، وله بين الناس نفس مكانة الطبـيب فى وقت لم يكُنْ هناك أطبـاء ، فلما خرَّجَتْ كـلية الطب أطباء وانتشروا فى القرى كان الحـلاق أول المهاجمين للطبيب ؛ لأنه يزاحـمـه فى رزقـه ، ويصـرف الناس عـنه ؛ لذلك كـان يذم فى الطبيب ويُشكِّك فى خبرته وقدراته .

لكن لما مرض ابنه ، وارتفعت درجة حرارته ، وخاف عليه قال لزوجته: انتظرى إلى ظلام الليل لأذهب به إلى الطبيب - يعنى : فى غفلة الناس .

فالإنسان بطبعه لا يخدع نفسه ، ولا يسلمها إذا جدَّ الجد ، وفيه فطرة إيمانية إذا ما صفيتها فى الذات البشرية لا تجد فى النهاية إلا قوة واحدة هى قوة الله .

حتى الملاحدة حين تضيق بهم الأسباب يقولون : يا رب ، يا الله . يقولونها من تلقاء أنفسهم ، دون مرور بالعقل الذى أنكروا به وجود الله . وهذا يعنى أن الفطرة الإيمانية قد تحجبها الأغيار البشرية وتلغيها ، فإذا ما نامت الأغيار البشرية وتلاشتْ لحدثٍ من الأحداث ظهرتْ الفطرة الإيمانية على السطح تلهمك بلا شعور .

لذلك نلحظ فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] شهدوا لأنهم ما يزالون فى عالم الذر ، لا تتحكم فيهم الأغيار البشرية ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

والله خلق الإنسان خليفة له فى الأرض ، وسخر له كل هذا الكون ، فإنْ ظلَّ متمسكاً بهذا المنهج ، ووقف عند حد الخلافة يفوز ، أما إنْ ظن أنه أصيل فى الكون يخيب ويخسر ، لكن الله الذى خلقه يعلم الأغيار فيه وهو خَلْقه وصنعته ؛ لذلك وجهه : أنت خليفتى فى أرضى ، وعليك أن تنظر إلى ما طُلب منك فتؤديه ، وإلا فسدت حياتك وتصادمت مع الآخرين ؛ لأنك لست وحدك فيها ، ولكى تنسجم مع غيرك لا بُدَّ أن تسير وَفْق منهجى ، وفى دائرة قوانين من استخلفك .

ثم يُنبِّهه من ناحية أخرى : يقول أنت أيها الإنسان ، اعلم أن الأسباب ستستجيب لك ، فإياك أن تظن أن لك قدرةً عليها ، أو أن لك جاهاً وعظمة ، فتنسى أنك خليفة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّ

﴿الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝﴾ [العلق] احذر حين تتم لك الأمور وتطاوعك الأسباب ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝﴾ [العلق] فسوف يقابلك من الأحداث ما لا تستطيع أسبابك أنْ تدفعَها ، ولن تجد مرجعاً إلا إليَّ .

وكيف يطغى الإنسان وقد أعطاه الله فيضاً من فيض كماله ، أعطاه قدرة من قدرته ، وعلماً من علمه .. إلخ فإذا نظرتَ نظرة بسيطة فى فيوضات الله عليك لوجدتها كثيرة ، بالله ماذا تفعل إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ، أو أن تُحرِّك يدك أو رِجْلك ؟ لا شىء ، بمجرد أن تريد تنفعل لك أعضاؤك ، وتطاوعك من حيث لا تدرى .

وسبق أنْ قارنّا بين حركة الإنسان وحركة الحفار مثلاً ، وكيف أنه يحتاج إلى عمليات مُعقدة ، فكل حركة منه لها زرٌ خاص يؤديها ، فماذا تفعل أنت إنْ أردتَ أنْ تؤدى مثل هذه الحركات ؟

إنك بمجرد الإرادة ينفعل لك العضو ، وكأن فيك فيضاً من قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝﴾ [يس] فإذا كنتَ أنت تفعل بمجرد أن تريد ، فلماذا لا تصدق هذا فى حقِّ الله تبارك وتعالى ؟

لكن هذه الحركة وانفعال الأعضاء لك ليس ذاتياً فيك ، ويستطيع خالقك أنْ يسلبها منك ، فتريد أن ترفع يدك فلا تستطيع ، فأنت تحت قيوميته تعالى ، فلم يُعطكَ من صفاته ، ثم يتركك . . فربنا سبحانه يحذرنا : إذا استغنيتَ ستطغى ؛ فتنبَّه أن إلى ربك الرُّجْعى .

ثم يلفت نظرنا من الآن إلى قضية أخرى قبل أنْ نتعرض للمخاطر: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ .. ۝﴾ [يونس] فلا تتعب نفسك ، وتذهب هنا أو هناك ؛ لأنه ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ .. ۝﴾ [يونس]

هذه نصيحتى لك ؛ لأنك صنعتى ، وأنا أحب أن تكون صنعتى

على أرقى ما تكون من الكمال ، فإذا مسَّك ضر لا تقدر على دَفْعه بأسبابك ، فعليك بباب ربك .

هذه ثلاث قضايا أو نصائح نقدمها لك قبل أنْ تحلَّ بك الأحداث والمصائب : إن استغنيت ستطغى ، وأن إلى ربك الرجعى ، وإذا مسَّك ضر ، ولا حيلةَ لك فى دفعه بأسبابك ، فليس لك إلا الله تفزع إليه ، والإله الذى يُنبِّهنا إلى المخاطر لنتلافاها إله رحيم .

إذن : فأنتم تحبون الحياة ، ولما نزلتْ بكم الأحداث والخطوب فى السفينة خِفْتم الموت ، ودعوتُم الله بالنجاة ، فأنتم حريصون على الحياة الدنيا ، فلَماذا لا تؤمنون بالله فتنالون حياة أخرى أبْقى وأدوم ؟ والطريق إليها بالإيمان واليقين ، وبمنهج الله فى (افعل) و (لا تفعل) .

هذه قضية ذكرها القرآن ، أمَّا واقع الحياة فقد أكدها ، وجاءت الأحداث وَفْق ما قال . القضية : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ** .. (١٢) ﴾ [يونس] الإنسان يعنى مُطْلق الإنسان : المؤمن والكافر ﴿ **أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا** .. (١٢) ﴾ [يونس] يعنى : فى كل الأحوال ، فلما جاءه الخطر وأصابه الضر دعا الله على أىِّ حال كان .

وهذه الأحوال تمثل مراحل راحات النفس ، فمثلاً حين تسير وأنت تحمل شيئاً ، فحين تتعب أولاً تضع عنك هذا الحمْل ، ثم تتوقف عن السير لتستريح ، فإنْ كان التعب أشد تقعد ، وإلا تضطجع على جنبك .

فأنت فى وضع الوقوف تحمل ثقل الجسم كله على القدمين فتكون الراحة أقل ، أمّا فى حالة القعود يُوزع ثقل الجسم على الوركين والمقعدة ، وفى الاضطجاع يُوزع نصف الجسم على نصفه فتكون الراحة أكبر ، وفى ضوء هذا نفهم أن الله يستجيب لك حين تدعوه قائماً ، أو قاعداً ، أو على جنبك .

وعجيب أمر الإنسان إذا نجَّاه الله مما يخاف وكشف عنه الضر عاد مرة أخرى ظالماً لنفسه : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

وفى لقطة أخرى يقول تعالى فى هذه المسألة : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] أىُّ ضر ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] ويا ليته نسى وسكت إنما ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر] فقال : الفضل لفلان ، وقد استغثت بفلان ، ولجأت إلى فلان .

نلحظ أن الكلام فى هذه الآيات عن الإنسان المفرد ، والإنسان حين يتضرع إلى الله لا يطلع عليه أحد ، فالأمر بينه وبين ربه ، لكن الحق سبحانه يريد أن يفضح الناس ببعض ، فيقول فى موضع آخر : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الإسراء]

فذكر الجماعة ليفضحهم أمام بعض ؛ لأن الإنسان يستر على نفسه ، فالحكمة من الجمع هنا أن رؤية الناس قد تكون مانعة من الشر ، فمثلاً فى موسم الحج ترى أكابر القوم وأوسطهم وأدناهم سواسية فى الطواف ، ويقف الواحد منهم يبكى عند الملتزم ، وحين يراك صاحب المنصب أو المركز وهو مَنْ هو فى بلده ساعة يعرف أنك رأيته وهو يبكى فى هذا الموقف تراه يتواضع لك ، ولا يتعالى عليك بعدها .

فالحق سبحانه حين يُحذِّرنا من العودة إلى المعصية بعد أنْ يكشف عنَّا الضر إنما يعطينا المصل الواقى بصورة تحدث فى الواقع ، وكأنه تعالى يقول لنا : خذوا بالكم ، واعلموا أنكم مفضوحون

بكتاب الله فيما تُحدثون من أحداث فى حياتكم ، فكل منكم ينبغى أنْ يعلم أنه مراقب من الأزل ومكتوبة عليه خواطره ؛ لأن معنى القرآن الحق أنه لا يتغير ، وإذا قال الله فيه شيئاً فلا بُدَّ أنْ يحدث كما أخبر الله به .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

واللام فى ﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] ليست لام التعليل ؛ لأن الكفر لم يكُنْ مقصداً لهم ، وحين عادوا بعد أن نجاهم الله إنما عادوا إلى أصلهم[1] ، فاللام هنا لام الأمر[2] كما لو قلت : قم يا زيد وليقم عمرو ، وعلامة لام الأمر أن تكون ساكنة ، وهى هنا مكسورة لأنها فى بداية الكلام ، حيث لا يُبدأ بساكن ، ولو وضعنا قبلها حرفاً لتبيَّن سكونها .

ومثالها فى قوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج]

وقوله سبحانه : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق]

والدليل على أنها لام الأمر سكون اللام بعدها فى قراءة من

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٢١) : « هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل » .

(٢) قال جمال الدين بن هشام الأنصارى فى مغنى اللبيب (١/١٨٦) طبعة عيسى البابى الحلبى : « وأما ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فيُحتمل اللامان ، منه التعليل فيكون ما بعدهما منصوباً ، والتهديد فيكون مجزوماً ، ويتعين الثانى فى اللام الثانية فى قراءة من سكَّنها ، فيترجح بذلك أن تكون اللام الأولى كذلك ، ويؤيده أن بعدهما ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [العنكبوت] » .

سكنها ، وفى ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦) ﴾ [العنكبوت] وقوله سبحانه : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [العنكبوت] فرْق فى الاستقبال بين السين وسوف ، فلو قال : فسيعلمون لَدلَّتْ على التهديد فى المستقبل القريب ، وأنه سيحل بهم العذاب فى الدنيا ، أمّا « سوف » فتدلّ على المستقبل البعيد ، فتشمل التهديد فى الدنيا وفى الآخرة فهى تستغرق الزمن كله ؛ لأن المسلمين فى بادىء الأمر كانوا مستضعفين ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، وذهبوا إلى النبى ﷺ يطلبون منه أن يستنصر الله لهم فلو قال حينئذ فى تهديد الكفار « فسيعلمون » لم تكن مناسبة ، إنما أعطى الأمد الأوسع للتهديد ، فقال : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ [العنكبوت]

لذلك تجد الدقة فى أَخْذ العهد من الأنصار للرسول ﷺ ، ومن الرسول للأنصار ، فلما قابلوا رسول الله قالوا : خُذْ لنفسك . قال : تحموننى مما تحمون منه أنفسكم وأعراضكم وأموالكم .

فقالوا : فما لنا إنْ فعلنا ؟ كان من الممكن أن يقول لهم : ستملكون الأرض أو ستنتشر دعوة الله بكم وتنتصرون على عدوكم ، لكن هذه الوعود قد يراها بعضهم ، ويموت بعضهم قبل أنْ تتحقق ، فلا يرى منها شيئاً ؛ لذلك ذكر لهم جزاءً يستوى فيه الجميع مَنْ يعيش منهم ، ومَنْ يموت ، فقال : « لكم الجنة »[1] .

وأيضاً حين يصرفهم عن دنيا الناس إلى أمر يكون فى الدنيا أيضاً ،

---

(١) عن أبى مسعود البدرى قال : « انطلق النبى ﷺ ومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة فقال : ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً وإن يعلموا بكم يفضحوكم فقال قائلهم وهو أبو أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئتَ ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل وعليكم إذا فعلنا ذلك فقال : أسألكم لربى عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأسألكم لنفسى ولأصحابى أن تؤونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : لكم الجنة . قالوا : فلك ذلك . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٢٠) .

فهى صفقة خاسرة ، إنما أراد أنْ يصرفهم عن دنيا الناس إلى شىء أعظم مما فى دنيا الناس ، وليس هناك أعظم من دنيا الناس إلا الجنة .

والصحابى الذى أخبره النبى ﷺ بأن الجنة جزاء الشهيد ، وكان يمضغ تمرة فى فمه فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : بلى ، فألقى التمرات وبادر إلى ساحة القتال يستعجل هذا الجزاء[1] .

إذن : فسوف صالحة للزمن المستقبل كله ، أمّا السين فللقريب ؛ لذلك يستخدمها القرآن فى مسائل الدنيا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

وهذه الرؤية ممتدة من زمن رسول الله ، وإلى أنْ تقوم الساعة ، فكل يوم يجدُّ فى ظواهر الكون أمور تدل على قدرة الله تعالى ، فمستقبل أسرار الله فى كونه لا تنتهى أبداً إلا بالسر الأعظم فى الآخرة ، ففى زمن رسول الله قال ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] وستظل كذلك ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] إلى أنْ تقوم الساعة .

ونلحظ أن المصاحف ما زال فى رسمها كلام حتى الآن ، فهنا ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا .. (٦٦) ﴾ [العنكبوت] تجد تحت اللام كسرة ، مع أنها ساكنة ، وهذا يعنى أن كتاب الله غالب ، وليس هناك محصٍ له .

وأذكر أن سيدنا الشيخ عبد الباقى[2] رضى الله عنه وجزاه الله عمّا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) من حديث جابر رضى الله عنه « أن رجلاً قال للنبى ﷺ يوم أحد » الحديث . قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٣٥٤/٧) : « لم أقف على اسمه » .

(٢) هو : محمد فؤاد عبد الباقى ، ولد فى قرية بالقليوبية بمصر عام ١٨٨٢م ، ونشأ فى القاهرة ، ودرّس فى بعض مدارسها ، ثم عمل مترجماً عن الفرنسية فى البنك الزراعى (١٩٠٥ - ١٩٣٣) وانقطع إلى التأليف . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٨م عن ٨٦ عاماً . [الأعلام للزركلى ٣٣٣/٦] .

قدَّم للإسلام خير الجزاء ـ أعدَّ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وحاول أن يحصى ألفاظه لا سيما لفظ الجلالة (الله) الذى من أجله أعدَّ هذا الكتاب ، ومع ذلك نسى لفظ الجلالة فى البسملة ، وبدأ من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②﴾ [الفاتحة] ؛ لذلك نقص العدد عنده واحداً[1] . وما ذلك إلا لأن كتاب الله أعظم وأكبر من أنْ يُحاط به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ⑰﴾

(رأى) قلنا : تأتى بصرية ، وتأتى بمعنى علم ، ومنه قولنا فى الجدال مثلاً أرى فى الموضوع الفلانى كذا وكذا ، ويقولون : (ولرأىَ الرؤْيا انْم ما لعلَمَا) ، وتجد فى أساليب القرآن كلاماً عن الرؤيا المخاطب بها غير راء للموضوع ، كما فى قوله سبحانه مخاطباً النبى ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ [الفيل]

ومعلوم أن النبى لم يرَ ما حدث من أمر الفيل ؛ لأنه وُلد فى هذا العام فرأى هنا بمعنى علم ، لكن لماذا عدل عن (ألم تعلم) إلى (ألم تر) ؟ قالوا : لأن المتكلم هنا هو الله تعالى ، فكأنه يقول لنبيه ﷺ : إذا أخبرتُك بشىء ، فإن إخبارى لك به أصدق من رؤيتك .

يقول سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .. ⑰﴾ [العنكبوت] فالحرم آمن رغم ما حدث له من ترويع

---

(١) أورد محمد فؤاد عبد الباقى (١١٢٥) موضعاً فى القرآن ذكر فيه لفظ الجلالة مجروراً مبتدئاً بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②﴾ [الفاتحة]